صورة مصر في محاورات أفلاطون

د. مصطفى النشار(*)

تمهيد

لا شك عندي أن مصر لعبت دورًا كبيرًا في فكر أفلاطون؛ فالكثير من عناصر فلسفته الميتافيزيقية منها والسياسية والاجتماعية بل والتربوية والفنية إنما هي مستقاة من فكر مفكريها ومن إبداعات علمائها وفنانيها ومما ترك بصماته واضحة على حياة أهلها ونظمهم السياسية والاجتماعية والتربوية. لقد عايش أفلاطون كل ذلك وربما قرأ نصوصا كثيرة أثناء تواجده في مصر لم نعرف عنها حتى الآن شيئا رغم أنه أشار صراحة وبوضوح إلى بعض ما نقله عنها وتعلمه منها.

ولعل أحدهم يتساءل الآن: كيف يتسنى لك تقرير ذلك بينما شكك بعض المؤخرين إلى اليوم في زيارة أفلاطون المزعومة لمصر القديمة؟!

أولًا: زيارة أفلاطون لمصر:

الحقيقة أن زيارة أفلاطون لمصر وأخذه عن فلاسفتها وعلمائها ونظامها التعليمي لم يعد موضع شك الآن من غالبية المؤرخين حتى لدى أشد المؤمنين بالمعجزة اليونانية[١]؛ فقد كانت الرحلة إلى مصر ميسورة وسهلة في ذلك الزمان، كما كانت تكلفتها ضئيلة جدًا، فضلا عن أن مصر كانت قد جذبت اليونانيين إليها منذ زمن بعيد[٢]، حيث أن زيارة كل فلاسفة اليونان من طاليس إلى

(*) أستاذ ورئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب – جامعة القاهرة.

(١ انظر من هؤلاء:

- Burnet (J.): Greek Philosophy – Thales To PlAto, Macmilan, London – Melbourne – Toronto, St Martin's Press, New York, 1968, P.171.

(٢) أوجست ديبس، أفلاطون، تعريب محمد إسماعيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، بدون تاريخ، ص٥٤.
وراجع هنا أيضا ما قاله أفلاطون نفسه في محاورة فيدون (٧٨)، الترجمة العربية لعزت قرني، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٧٣، ص١٢٧.

فيثاغورس وغيرهما ثابتة بالنقوش الآثارية القديمة وبكتابات المؤرخين اليونان القدامى وعلى رأسهم هيرودوت، وكذلك وفقا لما أخبرنا به المؤرخون اليونان الأوائل لفلسفة الطبيعة عند المصريين القدامى كما ورد عن مانيتون، وكما ورد لدى هكتايوس في مؤلفه عن الفلسفة المصرية[١].

وقد رجح برييه أن تكون هذه الزيارة لأفلاطون إلى مصر قد تمت بعد وفاة سقراط بتسع سنوات أي بين عامي ٣٩٠ و ٣٨٨ق.م، وقد أطلق على هذه الزيارة سفرة أفلاطون الكبرى الأولى نتيجة لإعجابه بماضيها الجدير بكل تقدير ولاستقرارها السياسي الأمثل[٢].

وربما يتسق مع هذه الرواية أن معظم المؤرخين يرون أن زيارة أفلاطون إلى ميجارا قد تمت عقب وفاة سقراط مباشرة ويرى بعضهم أنه قد عاد إلى أثينا بعد ذلك[٣]، وإن كان آخرون يؤكدون أنه ربما سافر من ميجارا إلى مصر مباشرة ويخمنون أنه كان متواجدا في أثينا من بين عام ٣٩٥-٣٩١ق.م[٤].

وكل هذه الروايات رغم اختلافها عن بعضها في التفاصيل تكاد تتفق وتتوافق مع رواية برييه بأن زيارة أفلاطون إلى مصر كانت بين عامي ٣٩٠ و٣٨٨ق.م. وقد قضى أفلاطون في مصر على الأرجح حوالي ثلاث سنوات، حيث إنه قد زار بعد ذلك وفي حوالي ٣٨٧ جنوب إيطاليا حيث التقى هناك بالفيلسوف الفيثاغوري والقائد السياسي أرخيتاس Archytas وتعرف منه على التعاليم الفيثاغورثية وقد رجح معظم المؤرخين ذلك بناء على ما ورد بالخطاب السابع لأفلاطون وكان آنذاك في حوالي الأربعين من عمره[٥].

---

(١) انظر ديوجينيس اللائرتي: حياة مشاهير الفلاسفة، المجلد الأول، الترجمة العربية لإمام عبدالفتاح إمام ومراجعة محمد حمدي إبراهيم، منشورات المجلس الأعلى للثقافة (١٠٢٣)، القاهرة ٢٠٠٦، ص٣٥-٣٦.

(٢) اميل برييه: تاريخ الفلسفة – الفلسفة اليونانية، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة ببيروت، ١٩٨٢، ص١٣٠.

(٣) انظر:

- Copleston (F.): A History Of Philosophy, Vol.I, Part I, Image Books, New York 1962, 12153.

(٤) انظر:

- Crombie (I. M.): An Examination Of Plato's Doctrines – I, Routledge & Kegan Paul Ltd., London 1969, P.7.

(٥) انظر:

- Burnet, Op, Cit., P.172.
- Crombie: Op. Cit., P.4
- Copleston, Op. Cit., P.153.

إذن لقد أجمع الكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين على زيارة أفلاطون لمصر، فهو قد نزح إليها كما نزح إليها الكثير من فلاسفة العالم القديم - على حد تعبير هنري توماس[١]، وقد ثبت من كتاباته نفسها اعترافه بفضل المصريين عليه كرواده وأساتذته في كل ما هو سام من عمل أو فكر إن الحقيقة التي لا مراء فيها ولا يمكن الاختلاف عليها أنه قد ورد ذكر مصر والمصريين في أكثر من عشرين موضعا في محاورات أفلاطون المختلفة، وهاكم القائمة التي أعدها جويت في فهرسه الذي نشره في ختام ترجمته الإنجليزية لمحاورات أفلاطون. إن القائمة تشتمل على إحدى عشرة محاورة من محاوراته ذكر فيها مصر والمصريين في حوالي ثلاثة وعشرين موضعا مختلفا في هذه المحاورات[١].

Phaedo - فيدون (80c)

Gorgias - جورجياس (511d)

Timaeus طيماوس (21c), (21e), (23e)

Critias كريتياس أو أكريتيس (108d) (113)

States man السياسي (290e)

Menexenus مينكسينوس (239e) (241e), (245d)

Phaedrus فايدروس (274c) - (275c) (275b)

Philipus فيليبوس (18b)

Euthydemus أوثيديموس (288b)

Republic الجمهورية (4-435e)

Laws القوانين (12-953e), (5-747c), (7-799a), (7-819b) (2-656d, 660b)

---

(١) هنري توماس: أعلام الفلاسفة - كيف نفهمهم، ترجمة متري أمين، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٤، ص٤.

- وانظر كتابنا: فكرة الألوهية عند أفلاطون. الطبعة الرابعة - الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ٢٠٠٥، ص١٦.

وفي الحقيقة أن حديث أفلاطون المباشر عن مصر في أهم هذه المحاورات وخاصة محاوراته الثلاث: فايدروس وطيماوس والقوانين هو حديث من شاهد وعاش في مصر وليس فقط من سمع عنها ممن زاروها أو من قرأ عنها في كتابات السابقين عليه.

وعلى أية حال فالسؤال الآن بعد أن تأكدت لنا زيارة أفلاطون لمصر وأثبتت كتاباته وما ذكره فيها عن مصر، السؤال هو: ماذا كانت صورة مصر لديه كما كشفت عنها كتاباته المختلفة وخاصة هذه المحاورات الثلاث التي ورد فيها ذكر مصر أكثر من مرة؟!

ثانيًا: صورة مصر في المحاورات الأفلاطونية:

(أ) مصر هي منبع الحكمة وأصل الحضارة:

في نهاية محاورة فايدروس والتي يرجح أنها من المحاورات المتأخرة التي ربما كتبها أفلاطون بعد محاورتي المأدبة والجمهورية، وإذا كانت المأدبة قد كتبت فيما بين عام ٣٨٥-٣٨٠ق.م[١]، فيرجح أن تكون فايدروس بعدها بحوالي عشر سنوات[١]، ويرجح البعض أنها قد كتبت بالفعل حوالي عام ٣٧٠ق.م[٢]. أقول أنه في نهاية هذه المحاورة التي تشعبت موضوعاتها البحثية حيث طرح فيها المتحاورون موضوعات عدة فتحدثوا عن الحب تارة، وعن النفس تارة أخرى وعن الخطابة تارة ثالثة، نجد أن أفلاطون يقحم على الحوار وفي إطار تساؤلاته عن قيمة الكتابة متى تكون حسنة ومتى تكون سيئة وما هي الطريقة الجيدة للكتابة، يقحم رواية يدعي أنها متوارثة بين الأجيال منذ القدم عن أصل الكتابة ومخترعها فيقول على لسان سقراط «لقد سمعت رواية تروى أنه قد عاش بمصر بالقرب من «نقراطيس» أحد الآلهة القديمة في تلك البلاد، وكانوا يرمزون لهذا الإله بالطائر الذي يسمونه كما تعلم «أبيس»، أما الإله فإن اسمه «تحوت» وهو أول من اكتشف علم العدد والحساب والهندسة والفلك وكذلك لعبة النرد والزهر وأخيرا اكتشف حروف الأبجدية»[٣].

---

(1) The Dialogues Of Plato, Trans. By B. Jowett In Five Volumes, Vol. V, Third Ed., Oxford University Press, London, P.408-409.

(٢) انظر: د. أميرة حلمي مطر، مقدمة ترجمتها العربية لمحاورة «فايدروس» لأفلاطون، نشرة دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ١٩٦٩، ص٢٢.

(٣) انظر: د./ مجدي السيد كيلاني: التاريخ والأسطورة في محاورات أفلاطون، المكتب الجامعي الحديث بالإسكندرية، ٢٠١٢، ص٥٤٧.

إذن فإن مصر فيما يروى أفلاطون لنا هي مهد اختراع الكتابة حيث تعود إلى الإله تحوت إله الحكمة والمعرفة، إله الكلمة الإلهية والكاتب الأعظم عند المصريين والذي كان يعيش بالقرب من نقراطيس وليس هذا فقط بل إنه من اكتشف أيضًا عدة علوم منها علم الحساب والعدد والهندسة والفلك وهي العلوم الرياضية التي كان أفلاطون يعتبرها في نظريته التربوية التمهيد الضروري لدراسة الفلسفة وهذا ما جعله يكتب على باب أكاديميته الفلسفية «لا يدخل علينا إلا من كان رياضيًا».

والجدير بالذكر أن تحوت theth هو إله القمر الذي كان يتخذ في التراث المصري القديم هيئة طائر أبي قردان وقد عبد في عدة أماكن بمصر وكان المركز الرئيسي لعبادته هو مدينة هرموبوليس وقد سيطر في التراث المصري القديم بالفعل على كل ما يتعلق بالثقافة الذهنية مثل اختراع الكتابة وفصل اللغات وبالتالي تسجيل الأحداث التاريخية والقوانين، كما كان حامي الكتابة وكان الإله المكلف بالحسابات والمسيطر على الحروف أي كان يحسب الزمن والسنوات والتقويم وأشرف على تقسيم الزمن[١].

وقد أكد أفلاطون كل ذلك فيما نقلنا عنه من محاوره فايدروس كما أكده كذلك وبصورة أكثر تفصيلا في إطار مناقشته قضية الحكمة واللذة في علاقتها بمعنى الحد واللاحدود أو الواحد واللا محدود مناقشة عددية وموسيقية في محاوره «فيليبوس» حيث يقول على لسان سقراط:

«حالما لاحظ إله ما أو إنسان إلهي ما... ورواية يتناقلونها في مصر تقول أن ذاك الإنسان هو رجل اسمه ثفت (أو ثوت) Thot، فذاك الرجل هو أول من لاحظ أن الأحرف الصوتية في لا محدوديتها، ليست واحدة بل كثيرة ثم عاد ولاحظ أن من الأحرف ما لاحظ له من الصوت بل له جرس ونبرة وله أيضا عدد ما، ثم فرز نوعًا ثالثا من الأحرف وندعوها الآن لا صوتية أو خرساء وبعد ذلك فصل الأحرف اللاجرسية واللاصوتية واحدا فواحدا، وكذلك الأحرف الصوتية والأحرف الوسطى على النمط عينه حتى أدرك عددها وأطلق على كل منها وعلى مجموعاتها اسم عناصر وإذ رأى أن أحدا منا لا يستطيع أن يتعلم حتى حرفا واحدا لذاته وفي ذاته إذا عزل عن مجموعة الأحرف، وإذ فكر أن هذا الرباط بين الأحرف هو واحد،

(١) جورج بوزنر وآخرون: معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة، نشرة مكتبة الأسرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٦، ص٩٣.

وأنه يجعل منها وحدة من بعض الوجوه أعلن أن لها فنا واحدا أطلق عليها علم القواعد (علم الأحرف)[١].

والحقيقة التي تتبدى لنا من ذلك أن مصر ممثلة في تحوت واكتشافاته المختلفة كانت تمثل مصدرا للإلهام وللحكمة الأفلاطونية سواء فيما يتعلق بأصل الكتابة ودورها في تخليد الحكمة أو مسخها كما بدا في النقاش الذي دار بين الملك المصري القديم تاموس Thamous وبين تحوت؛ حيث أن المبدع تحوت حينما ذهب إلى هذا الملك ليعرض عليه اكتشافه لحروف الأبجدية قائلًا: هاك أيها الملك معرفة ستجعل المصريين أحكم وأكثر قدرة على التذكر، لقد اكتشفت سر الحكمة والذاكرة[٢]. فكان رد هذا الملك الفيلسوف عليه قائلا: يا تحوت يا سيد الفنون الذي لا مثيل له، هناك رجل قد أوتي القدرة على اختراع الفن، وهناك رجل غيره هو الذي يحكم على ما يجلبه هذا الفن من ضرر أو نفع لمن يستخدمونه - والآن وبوصفك مخترع الكتابة، أراك قد نسبت لها عكس نتائجها الصحيحة بدافع تحيزك لها؛ ذلك لأن هذا الاختراع سينتهي بمن يستعملونه إلى ضعف التذكر لأنهم سيتوقفون عن تمرين ذاكرتهم حين يعتمدون على المكتوب، وبفضل ما يأتيهم من انطباعات خارجية غريبة عن أنفسهم وليس بما يباطن أنفسهم، إنك لم تجد علاجا للذاكرة ولكن للتداعي. أما بخصوص الحكمة فإن ما قدمته لتلاميذك ليس هو الحقيقة بل مظهرها؛ فهم حين يتجرعون بفضلك المعلومات بغير استيعاب يبدون قادرين على الحكم في كل شيء بينما هم في معظم الأحيان جهله لا يمكن تحملهم ومن ثم يكونون أشباه الحكماء من الرجال لا الحكماء»[٣].

لقد أكد أفلاطون وعلى لسان سقراط أيضا بعد أن روى هذا الحوار الرائع بين مكتشف الحروف والكتابة المبدع المصري تحوت وبين الملك الفيلسوف تاموس حول جدوى هذا الاكتشاف الذي غير حياة البشرية وساهم في تسجيل معالم الحضارة الإنسانية منذ ذلك التاريخ وحتى الآن، أقول لقد أكد أفلاطون أنه يوافق على ما قاله مواطن طيبة بخصوص هذا الاكتشاف للكتابة، «إذ أن كل من يظن أنه ترك بالكتابة فنا أو من يظن أنه قد تلقاه معتقدًا أن

(١) أفلاطون: الفيلفس (فيليبوس) (18 B-D)، الترجمة العربية للأب فؤاد جرجي بربارة، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٧٠، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) أفلاطون، فايدروس (٢٧٤هـ)، الترجمة العربية، ص١٢٤.

(٣) نفسه: (٢٧٥أ-ب)، الترجمة العربية ص١٢٤-١٢٥.

الكتابة تنطوي على تعليم مؤكد واضح فلا شك أن مثل هذا الشخص هو رجل على قدر كبير من السذاجة وأنه لابد جاهل بنبوءة آمون إذ سيتصور أن البحث المكتوب بالقياس إلى من يعرف هو أكثر من مجرد وسيلة لاسترجاع ماقد سبق علمه»[١].

إن أفلاطون أميل إلى رأي الملك الذي يقلل من شأن هذا الاكتشاف فيما يتعلق بالمعرفة والحكمة، فهو ليس مناط المعرفة بل هو مجرد تجميد لها في نص مكتوب. ومن ثم لا ينبغي أن تتوازى قيمة كتابة نواتج الحكمة والمعرفة مع قيمة تسجيلها، فالأهم لدى الإنسان الواعي هو أن يعرف وأن يلقن معارفه وحكمته لغيره شفهيًا وهو حينما ينقلها بين تلاميذه المختلفين وأجيالهم شفهيا يجددها وتتجدد وتتطور بتطور فكره وعبر مناقشاتهم بينما لو سجلها مكتوبة مستفيدا من هذا الاكتشاف الخطير - اكتشاف الحروف وعلم الكتابة - فإنها تتجمد عند اللحظة التي سجلت فيها.

إن أفلاطون كأستاذه سقراط ممن يؤمنون إذن بتجدد المعرفة وبجدوى الحوار والمناقشة رغم أنه قد مجد هذا الاكتشاف المصري الخطير للكتابة باعتبارها قد أصبحت سر أسرار الحفاظ عليها ووعاء ضروري لها؛ إنه على الرغم من أن العقل المشحون بالمعرفة وتجددها عبر تناقلها وتجددها شفهيا عند أفلاطون خير من العقل المشحون بالمعلومات التي يحفظها عبر النص المكتوب الذي تجمد عند لحظة معينة[٢]، إلا أنه بلا شك قد قدر لهذا الاكتشاف الخطير اكتشاف الحروف والكتابة أنه نقطة البداية العظمى للحضارة الإنسانية وبداية تسجيل المنجزات الحضارية والكاشف عن مدى تطورها عبر العصور، فضلا عن أن هذا الاكتشاف الخطير هو نقطة البداية لاكتشافات أكثر تطورا وعمقا فمن علم الحروف أو علم الكتابة إلى علوم العدد والحساب والهندسة وكذلك علم الموسيقى وعلم الأصوات وعلم الفلك، وهذه العلوم جميعا إنما تمثل عند أفلاطون الأساس الذي يستند عليه ويحلل من خلاله معنى الخير والشر، والعلاقة بين اللذة والحكمة، والعلاقة بين الحد واللامحدود، إننا نستطيع أن نقول بثقة وبدون خوف الوقوع في الزلل أن الفقرة التي أوردناها من قبل في محاوره فيليبوس» تكشف بما لا يدع مجالا للشك أن هذا النقاش الذي تطور عبر محاورات أفلاطون السابقة حتى كتابه فيليبوس وهي من المحاورات المتأخرة جدًا بين كتابات أفلاطون والتي يتبدى فيها آخر تطور

(١) نفسه (٢٧٥د)، الترجمة العربية ص١٢٥.

(٢) انظر نفس المصدر (٢٧٥د-هـ) و(٢٧٦أ - ب - ج - د - هـ) و(٢٧٧أ)، ص١٢٥-١٢٧ من الترجمة العربية.

لنظرية المثل[١] وآخر تطور لنظريته الأخلاقية والكاشفة عن موقفه النهائي عن الخير الأقصى للإنسان باعتباره مزيجا من حياة اللذة وحياة الحكمة[٢]. أقول إن هذا النقاش قد استفاد فيه أفلاطون كثيرا من زيارته لمصر ومن معرفته بالكثير من أسرار الفكر المصري القديم الذي يمثل أصلًا من اصول المثالية الأفلاطونية.

(ب) مصر هي بلد النيل والتاريخ العريق والحافظة لتاريخ العالم القديم:

ويتوقف أفلاطون طويلا عند مصر وحضارتها والعلاقة بين الحضارة المصرية والحضارة اليونانية في محاورة طيماوس، تلك المحاورة التي يمكن اعتبارها إلهاما مصريا خالصا لأفلاطون فيما ورد فيها من نظريات فلسفية حول أصل العالم وكيفية الخلق وتركيب الكائنات الحية ومكانة النفس في الطبيعة الإنسانية.

إن مجرد القول بأن بعض التعابير التي وردت فيها تشي بأنه ربما طالع نصوصا لهيرودوت متعلقة بمصر لا يعني مطلقا أنه قد اكتفى بما قرأ من هيرودوت أو بما سمع من غيره حول مصر؛ فهيرودوت كان يهتم في تأريخه بالذات بالمقارنة بين معتقدات وعادات المصريين ومعتقدات وعادات اليونانيين و إبراز مدى التشابه وقدر الاختلاف بين هؤلاء وأولئك ومدى تأثر اليونانيين بما شاهده هو نفسه في مصر على جميع الأصعدة وفي مختلف مجالات الحياة. لكن أفلاطون فيما يوروده هنا في طيماوس يتجاوز ذلك بكثير حيث يلتقط عند اليونانيين القدامى وعند معاصري صولون من أهل مصر أوجه شبه من شأنها أن تفرض فكرة تلاحم قديم بين الشعبين وقد اعتمد في ذلك - فيما يقول البيرريفو - على ملاحظاته الشخصية[٣]، وحاول أن يؤكد صحة روايته عبر التأكيد على تاريخيتها مستندا في ذلك على استشهاده برواية صولون كبير مشرعي اليونان وكذلك مستندا على روايات وشهادات كهنة مصر القديمة الذين ورد ذكرهم في ثنايا رواية صولون نفسه.

---

(١) انظر كتابنا: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي - الجزء الثاني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٠، ص٢١٣-٢١٤.

(٢) انظر: أفلاطون، فيليبوس (الفيلفس) (٥١-٥٦)، الترجمة العربية ص٢٧٢-٢٨٦ وكذلك كتابنا: تاريخ الفلسفة اليونانية - الجزء الثاني، ص٢٥٤-٢٥٥.

(٣) البيرريفو: تقديمه للترجمة الفرنسية لمحاوره طيماوس لأفلاطون، نقلها إلى العربية الأب فؤاد جرجي بربارة، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٦٨، ص٤٤.

يبدأ أفلاطون المحاورة بتمهيد بين المتحاورين يفضي إلى رواية صولون الذي زار مصر وتوقف فيها خاصة عند مدينة كبيرة هي مدينة سايس (صان الحجر) التي خرج منها الملك أمزس (أو أحمس) الذي كان ينتمي إلى السلالة أو الأسرة السادسة والعشرين، وأخذ يتعرف على كهنتها ومشايخها الأكثر خبرة وحاول أن يدفعهم دفعا لأن يقصوا عليه جانبا من الأحداث الماضية السحيقة التي مرت ببلاده، وفيما بدأ أحدهم الحديث معه حول الإنسان الأول ونسله وما واجهوه من أحداث جسام وكيف نجوا من الطوفان، قاطعه أحد كهنة مصر القديمة وكان طاعنا في السن قائلًا:

«صولون يا صولون، أنتم الهلين تلبثون دوما أطفالا وليس من شيخ هليني ... أنتم جميعكم فتيان بأرواحكم، إذ لا تحفظون فيها زعمًا قديما مستمرا من نقل أو تلقين عتيق ولا علما مغبرا مع تراخي الزمان»[١].

لقد لخص الكاهن المصري هنا لصولون الفرق الكبير بين الإنسان اليوناني وبين غيره من البشر؛ فهو إنسان مغوار مقامر يتمتع بروح الشباب الدائم وأفكاره دائما متجددة ولا تعتمد على التقليد ولا تهتم بالنقول، وفوق كل ذلك وبعده لا يحتفظ بذاكرته بالأحداث الماضية، إن هذه الخصائص التي عبر عنها هذا الكاهن المصري واختص بها الإنسان اليوناني استهدفت من جانب آخر أن اليونانيين بالنسبة إلى المصريين يعدون أطفالا في مهد حضارتهم رغم أنه أكد في الفقرة التالية على عراقتها هي الأخرى، حيث يقول مستكملا حديثه مخاطبا صولون:

«لا تعلمون أن أبهى وخير أمة أخرجت للناس ظهرت عندكم وفي بلادكم، ومنها انحدرت أنت وجميع رعايا دولتكم الحاضرة، إذ قد بقى فيكم قسط زهيد من زرع تلك الأمة وقد فاتكم هذا الأمر لأن المتعاقبين من تلك الأمة خلال أجيال وأجيال قد تلفوا وهم لا ينطقون بلغة الكتابة، لأن دولة الأثينيين الحاضرة كانت مزدهرة يا صولون في العصور الغابرة قبل أعظم بوار انتاب البشر بالمياه»[٢].

والطريف هنا أن الكاهن المصري لم يكتف بذلك تأكيدا على عراقة دولة أثينا وعمقها التاريخي، بل يؤكد له فيما يلي من فقرات:

(١) أفلاطون: طيماوس (٢٢)، الترجمة العربية السابق الإشارة إليها، ص١٩٠-١٩١.
(٢) نفسه، طيماوس (23 C-D)، ص١٩٤.

«إن بلادكم سبقت بلادنا بألف سنة» وبلادنا أتت بعدها في الزمن وقد سجل بالكتابة في هيا كلنا حساب السنين التي مرت على حضارة وطننا هذا، أما مواطنوك الذين عاشوا منذ تسعة آلاف سنة فسأبين لك قوانينهم بإيجاز وسأروي لك أبهى مآثرة أتوها...»[١].

وقد كان الكاهن المصري كريما مع ضيفه إلى حد أن أوضح له أن الشرائع المصرية الحالية التي تبهره (أي تبهر صولون) إنما هي صورة لقوانين أثينا قبل ذلك العهد بتسعة آلاف سنة وختم فقرته التي أكد فيها ذلك بقوله:

«لقد اتبعتم سننا مثل هذه السنن (يقصد السن الحالية للمصريين) وتفوقتم على الناس طرا بكل ضرب من المناقب على ما يليق بأولاد الآلهة وأربتهم»[٢].

والحقيقة أنني لا أدري هل هذا الذي قاله الكاهن لصولون حقيقة أم سخرية؛ هل صحيح أن أثينا أقدم من مصر وهل سبق الأثينيون مصر حضاريا ووجودا بألف عام وحال دون كشف ذلك جهل أهل أثينا بالكتابة!! أم أن الحقيقة هي العكس وهي أن الأثينيين المعاصرين لهذا الكاهن ولصولون على فرض صحة هذا اللقاء تاريخيا هم من نقلوا كل نظم وشرائع المصريين وقصد الكاهن المصري أن يسخر من صولون وأن يوضح له بطريقة ساخرة أن ما يشاهده في مصر هو أصل كل ما لدى الأثينيين واليونانيين من حضارة ونظم وشرائع وعبادات! أعتقد أن الاحتمال الأخير هو الأصوب فإن هذا هو ما أكده هيرودوت في الجزء الذي كتبه عن مصر في تأريخه، إذ أكد أن معظم المظاهر الحضارية اليونانية إنما هي منقولة عن مصر بما في ذلك حتى اسماء الآلهة وطرائق العبادة[٣].

وفي اعتقادي أن مجريات الحوار بعد ذلك في طيماوس ومنذ أن يبدأ حديث طيماوس في الفقرة ٣٠ وما بعدها عن علة خلق العالم وكيفية إيجاده باعتباره كائنا حيا نظمه العقل الإلهي المنظم لكل ما في الوجود والذي حول الفوضى إلى نظام دقيق بفكره وعمل مساعديه، إنما هو من وحي ما تلقاه أفلاطون من معارف وتعاليم أثناء زيارته هو الشخصية لمصر القديمة وأن

(١) نفسه (24A)، (23E)، ص١٩٤-١٩٥.

(٢) نفسه (24E)، ص١٩٦.

(٣) انظر:

- Heroduts: The Histories, Translated Into Eng. By: Aubrey De Selincourt,Penguin Books, U. S. A., 1963.

كل ما جاء على لسان طيماوس في هذه المحاورة إنما هو تأثر بالرؤية المصرية القديمة لنشأة العالم الطبيعي وخاصة النظرية المنفية التي تؤكد على أن الإله بتاح فكر وتدبر ثم نطق فكان كل الوجود بما فيه من نظام وخيرية[١].

وبالطبع فإن ما يصدق على علاقة محاورة طيمارس بالفكر المصري القديم يمكن أن يقال على ما ورد في المحاورة الملحقة بها محاورة أكرتيس أوكريتياس، وإن كان أفلاطون في هذه المحاورة الأخيرة كان أكثر وضوحا حينما قال في مطلعها على لسان أكرتيس:

«إننا إذا تذكرنا ذكرى وافية وروينا أقوال الكهنة المصريين وقد نقلها صولون إلى ديارنا فأنا أعرف تقريبا أننا سوف نبدو لهذا الجمهور بمظهر من أنجز ما يليق به إنجازا مقبولا»[٢].

وكما أكد ذلك مرة أخرى في فقرة تالية بقوله:

«وأقول هذه الأشياء وأقيم الدليل على قولي معتمدا في ذلك على رواية صولون.. وإن أمجاد كل هؤلاء الرجال قد سردها أولئك الكهنة (يقصد كهنة مصر) في حديثهم عن الحرب التي وقعت آنذاك..»[٣].

إذن فكل الرواية التي وردت عن الأطلنتيس في محاورة أكرتيس إنما هي رواية مصرية نقلها إلى بلاد اليونان صولون واحتفظ بها أكرتيس وعبر عنها في هذه المحاورة. وهو ينص على ذلك صراحة في الفقرة (113a) حينما قال أن جده صولون قد نقل مخطوطات هذه القصة من مصر إلى اليونان وأنه لا يزال يحتفظ بها «.. وهذه المخطوطات قد كانت طبعًا عند جدى (صولون) ولا تزال إلى الآن وقد أكببت على درسها وتأملها وأنا بعد غلام صغير»[٤].

إن كل ذلك يشي بأن مصر هي ملهمة أفلاطون الجانب الأكبر من فلسفته الطبيعية والإلهية التي عبر عنها في طيماوس، وهي منبع معظم الروايات التاريخية التي تحدثت عن تلك

(١) انظر: تفاصيل الرؤى المصرية وخاصة النص المنفي في: د./ مصطفى النشار: فلسفة الطبيعة وتفسير نشأة الوجود في مصر القديمة، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – مجلد ٥٥ – العدد الرابع، أكتوبر ١٩٩٥.

(٢) أفلاطون: اكرتيس (108D-E)، الترجمة العربية لفؤاد جرجي بربارة ملحقة بترجمته السابق الإشارة إليها لطيماوس، ص٤٤٢.

(٣) نفسه (110 Ab)، ص٤٤٦.

(٤) نفسه (113 A)، ص٤٥٣.

الحضارة القديمة التي بادت حضارة الأطلنتيس، فهي الحافظة لتاريخ الأمم السابقة كما أنها مهد التاريخ والحضارة الإنسانية في ذهنية اليونانيين من صولون حتى أفلاطون.

(ج) مصر هي القدوة في نظمها الأخلاقية والتعليمية:

أما فيما يتعلق بالجانب السياسي والتعليمي في فلسفة أفلاطون، فهو بلا شك في جانب كبير منه أيضا متأثر بما شاهده أفلاطون في مصر من نظم سياسية واجتماعية مستقرة، وجيدة، وما وجده لدى المصريين من نظام تربوي وتعليمي متطور ومتوازن أبهره فامتدحه في غير موضع من محاوراته.

لقد ذكر أفلاطون مصر في محاوراته السياسية الثلاث (الجمهورية – السياسي – القوانين) وإن كانت أشارته إليها في المحاورتين الأولى والثانية سريعة إلا أنه قد توقف في مواضع عديدة من محاورته الأخيرة عند مصر ممتدحا نظمها التعليمية والتربوية.

لقد أشار أفلاطون عرضا في الجمهورية إلى المصريين مقترنين بالفينيقيين واصفا إياهم بالمهارة الفطرية في التجارة[1]، لكن هذا لا يمنع من أن ثمة تأثرا أفلاطونيا بمصر في هذه المحاورة التي رسم فيها معالم المدينة المثالية لديه، حيث أنه بدأها بالحديث عن العدالة وربط بين العدالة وتطبيقها في الدولة عبر النص على نظام طبقي محدد تمارس فيه كل طبقة وظيفتها متحلية بفضيلتها حتى تستقيم الدولة ولا تتداخل اختصاصات الأفراد فيها. وهذا الاقتراح للتخصص، وإبراز فكرة العدالة وقيام الدولة عليها، وهذا النظام الطبقي الصارم الذي تحدث عنه أفلاطون وضرورة تحلي الجميع بالفضائل إنما هي كلها أفكار يمكن مقارنتها بما شاهده أفلاطون في مصر؛ فالفكر السياسي المصري كله يقوم على الماعت Maat (العدالة والنظام)[2]، وكل النظام السياسي المصري يحترم الطبقية كما ينظر إلى الملك الحاكم كأنه إله ويسبغ عليه كل الحكمة ومن ثم فكل ما يقوله هو القانون الذي يجب أن يحترم من قبل الجميع. ولا شك أن

(1) Plato: The Republic (436), English Trans. By H. D. P.Lee, The Penguin Classics, Penguin Books. London, 1962, P.186.

(٢) انظر ما كتبناه عن الفكر السياسي في مصر القديمة في كتابنا: الفلسفة الشرقية القديمة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان – الأردن ٢٠١٢، ص١١٣ وما بعدها.

- وانظر كذلك كتابنا: الخطاب السياسي في مصر القديمة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٩٨.

الدولة المثالية عند أفلاطون بما فيها من نظام ملكي يقوم على الحكمة التي تكاد تجعل الفيلسوف أو الحكيم هو الحاكم بأمره في المدينة المثالية إنما هو نظام يحاكي ما كان موجودًا في مصر أكثر من محاكاته لأي نظام سياسي كان موجودا في بلاد اليونان.

وقد أشار أفلاطون كذلك في محاورة «السياسي» إلى النظام الملكي في مصر القديمة والطابع الكهنوتي الذي يميزه[١]، مما يؤكد أنه قد تعرف أيضا على هذا النظام الملكي المصري عن قرب وعرف خصائصه والعلاقة التي كانت تربط الملك المصري برعيته وبمواطنيه.

وقد بلغ الإعجاب الصريح من أفلاطون تجاه النظم السياسية والاجتماعية والتربوية المصرية مدى بعيدا في آخر محاوراته عموما ومحاوراته السياسية على وجه الخصوص «القوانين»، ففيها نجد تأثر أفلاطون الواضح بهذه النظم وإشادته اللامحدودة بها؛ ففي الكتاب الثاني من المحاورة، محاورة القوانين يتحدث أفلاطون عن التربية الفنية مؤكدا أنها تستند على التمييز بين الفن الجيد والفن الرديء، ويضرب مثالًا بفن الموسيقى وضرورة أن يكون لدينا قواعد وتقاليد محددة للحكم عليها كما ورد في صحف الفن المصري؛ فقد اهتم المصريون جدا – فيما يرى أفلاطون – بوضع هذه القواعد والاحتفاظ بها والالتزام بها.

يقول الأثيني بلسان أفلاطون:

«.. ترك المواطنون في كل مجتمع أحرارًا فيما يفعلوه فيما عدا مصر»

يرد كلينياس:

أرجو بالنسبة لمصر ذاتها أن تخبرني كيف نظم القانون الأمور هناك؟!

فيقول الأثيني: إنه ليبدو أن ذلك الشعب قد عرف منذ أمد بعيد صدق ما نؤكده الآن. ذلك أن هذه الوقفات وتلك الإيقاعات يجب أن تكون جيدة إذا كان على الجيل الشاب من المواطنين أن يعتاد ممارستها، وهكذا نجدهم قد سحبوا كل القوائم ذات الأمثلة القياسية، ودشنوا نماذج لها في معابدهم وكان محرمًا على النقاشين وكل من يزاول أنواع الرسم الأخرى أن يجدد في هذه النماذج أو أن يحتفي بشيء غير هذه النماذج القياسية التقليدية، وما يزال ذلك التحريم قائما

(١) انظر:

- Plato: The Statesman (290e), Eng. Trans. By J. B. Skemp, Routledge & Kegan Paul. London, 1961, P.190.

بالنسبة لهذه الفتون وللموسيقى في كل فروعها وإذا ما فتشت عن صورهم وعن بديل هذه الصور في نفس المكان فإنك ستجد أن عمل عشرة آلاف سنة مضت ليس بأحسن ولا بأسوأ مما هو أمامنا اليوم وأنا أعني ما أقول بكل دقة ولا أتكلم كلاما غير محدد، وكلاهما يعرض فنًا متسابها أو فنًا بعينه.

كلينياس: وذلك من أشد الأحوال عجبًا.

الاثيني: وهو بالأحرى من معجزات مشرعيهم ورجال السياسة عندهم[1].

إذن لقد اعتبر أفلاطون أن القواعد الفنية التي ربى المصريون شبابهم عليها من معجزات مشرعي القوانين المصرية ومن معجزات السياسة المصرية، وقد شغل أفلاطون في ثنايا هذا الكتاب الثاني من المحاورة بالنظام التعليمي وخاصة في مجال الفنون عامة وفن الموسيقى على وجه الخصوص. إن مصر بالنسبة لأفلاطون في هذا الأمر تمثل النموذج الذي ينبغي أن يحتذى.

وهكذا الحال في الكثير من جوانب العملية التعليمية؛ إذ يعود أفلاطون في الكتاب السابع من نفس المحاورة إلى مصر القديمة ليؤكد ضرورة أن يتعلم الأطفال والتلاميذ ما يتعلمه أمثالهم في مصر بغير صعوبة، حين يتعلمون في مصر عبر الألعاب كيف يكتشفون عوامل الأعداد (معاملات الأعداد) وكيف لا يمكن قياسها والمساحات والأحجام. وينبغي أن يتضمن المنهج في التعليم الثانوي في الصفوف المتأخرة للمراهقين موضوعا واحدا هو الحجوم غير المعقولة والجبر حتى المعادلات التربيعية، ويجب كذلك تعليمهم علم الفلك إلى حد يكفي لأن يفهموا فهما سليما حركات الكواكب وسرعتها والنسب الصحيحة في مداراتها. ويقول الأثيني في نص الحوار معبرًا عن ذلك:

«حسنًا، فأنا متمسك بأن الرجال الأحرار يجب أن يدرسوا من هذه الموضوعات المتنوعة قدرًا كبيرًا مثل القدر الذي يعطي في مصر لأعداد كبيرة من الأطفال إلى جانب حروفهم الكتابية. ولكي يبدأوا فقد قسمت هناك الدروس إلى الحروف المتشابكة لنفس الأطفال وهي حروف يستطيعون تعلمها بقدر طيب من التسلية والمرح فتثار مسائل عن توزيع مجموع من

(1) Plato: The Laws (656-657), Eng. Trans By T. J. Saunders, Penguin Books, London, 1978, P.91-92.

- وقارن الترجمة العربية لنفس المحاورة، لمحمد حسن ظاظا، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٩٨٦، ص١٢٩-١٣٠.

العدد الثابت للتفاح أو ضفائر الزهور على مجموعات أكبر وأصغر.. إن لدى المدرسين مبارة يوزعون فيها مجموعات من أطباق الفناجين الذهبية والفضية والنحاسية وما أشبه من المواد، ومجموعات كاملة من معدن واحد في أحوال أخرى، وبذلك النحو يجسمون كما قلت التطبيق الأولي للحساب في لعب الأطفال.

ويقدمون للأطفال إعدادًا للاستعدادات وتكوينات وحركات الحياة العسكرية ولتدبير شئون الحياة العائلية بالمثل وتجعلهم أكثر يقظة وأكثر قدرة على خدمة أنفسهم بكل طريقة، ثم يمضون إلى تمرينات في قياس الأطوال والسطوح والمحتويات التكعيبية وبها يقشعون ظلام ذلك الجهل الشعبي العام، الجهل المضحك الذي ينضح بالعار، جهل النوع البشري كله بالموضوع[1].

إن هذا النهج التعليمي لا يستدعي دهشة أفلاطون فقط، بل ينبغي أن يدهشنا نحن أيضًا في القرن الحادي والعشرين؛ فلقد استخدموا منذ ذلك التاريخ السحيق طريقة التعليم عن طريق اللعب، وتعليم الحساب والرياضيات عن طريق التجسيم، كما يدربونهم على شئون الحياة العامة والعائلية، بل والعسكرية أيضا. إن بحث أفلاطون عن القدوة والمثال في كل شيء دفعة دفعًا إلى الانبهار بهذا النظام التعليمي الفريد للأطفال وكيف يتدرج ليصبح ملائما للشباب، ومحاولة دمجه في نظامه التعليمي هنا في القوانين، كما رسم من خلاله نظامه التعليمي الأكثر تنظيما في مراحله في محاورة الجمهورية قبل ذلك.

كما حاول أفلاطون كذلك أن يحازي النظم المصرية في الحد من إنطلاق الشباب والفتيات عز الفنون التي تغريهم بالانخراط في الملذات دون وعي وها كم ما يقول أفلاطون:

- **الأثيني:** إذن سنقول أنه يجب استعمال كل طريقة لصيانة أولادنا من الرغبة في إنتاج نماذج مختلفة من الرقص أو الغناء مثلما نمنع من يمكن أن يحاول إغرائهم بتشكيلة من اللذات.
- **كليتياس:** ذلك قول كامل الصدق.
- **الأثيني:** حسنا فهل يستطيع أي واحد منا أن يجد منهجا أفضل من أجل ذلك الغرض من المنهج المستعمل في مصر؟

(1) Plato: The Laws (819), Eng. Trans., P.313.

- وقارن الترجمة العربية السابق الإشارة إليها، ص٣٦٢.

- كلينياس: وما هو هذا المنهج؟
- الأثيني: لنعدل كل رقصنًا وأنغامنا، فإن علينا أولا: الأعياد يجب أن تحدد بتصنيف تقويم سنوي يرينا أي الأعياد يجب أن نحتفل بها وفي أي تاريخ وتكريما لأي الآلهة وأبناء الآلهة أو الأرواح كل فيما يخصه. ويجب ثانيا أن تحدد سلطات معينة أي الترنيمات التي يتغنى بها في عيد كل إله، وبأي الرقصات يتم بها جمال احتفال اليوم. فإذا تقرر ذلك تقريرا فاصلا فإن جمهور المواطنين يجب أن تقوم بتقديم القرابين العامة لآلهة القدر، بل لهيا كل كل الآلهة على العموم. ونكرس كل ترنيمة للإله الذي يخصها. وإذا حاول أي رجل إدخال ترنيمات ورقصات في أعياد أي إله خارجة عما في هذه القوانين، فإن الكهنة من الجنسين وعملهم على اتصال بحراس القانون ستكون لهم رخصة كل من الدين والقانون في إخراجه من الاحتفال، وإذا أبي المبعدون الخضوع لذلك الطرد من حرم المعبد فإنه سيكون طوال حياته عرضة للاتهام بالكفر لحظة اهتمام أي شخص باتخاذ الإجراءات ضده[1]».

إن أفلاطون هنا قد اعتمد المنهج المصري القديم في وضع نظام محدد للاحتفال بالأعياد المختلفة في الدولة وقواعد هذه الاحتفالات والموسيقى التي ينبغي أن تستخدم في هذه الاحتفالات وعلى الجميع احترام هذه القواعد والقوانين وإلا سيخضعوا للعقاب بالطرد من هذه الاحتفالات.

خاتمة:

ولعلنا بعد هذه الرحلة في عقل أفلاطون من خلال نصوصه المختلفة نستطيع بلورة صورة مصر في عقله ومن خلال محاوراته فيما يلي:

أولًا: أن مصر هي مهد التاريخ والحضارة الإنسانية.

ثانيًا: أنها مهد الكتابة ومهد التشريعات والقوانين التي أسست أرقى مدنية في الزمن القديم.

(1) Plato: The Laws (799), Eng. Trans, P.285.

- وقارن الترجمة العربية للقوانين، ص٣٣٣-٣٣٤.

ثالثًا: أنها تمتلك أرقى التفسيرات وأعمق النظريات في تفسير العالم الطبيعي؛ ذلك التفسير الذي يقرن كل ما هو طبيعي بما هو إلهي، وأن الإله الخالق هو من أخضع الفوضى للنظام، وبث في كل أرجاء الوجود الحياة والنظام الدقيق.

رابعًا: أنها تمتلك أرقى مفهوم للإنسان، فالإنسان الذي صوره الإله فأحسن تصويره ليس جسدًا فقط وإنما هو جسم ونفس. وقد حافظ المصريون على الجسد بالتحنيط كما أشار أفلاطون إلى ذلك في محاوره «فيدون»[1]، كما أكدوا على أن ثمة حياة أخرى للنفس، فالإنسان بجسمه ونفسه ينبغي حسب رؤيتهم للخلود أن يبقى جسما ونفسا، وهم قد نجحوا في الحفاظ على الجسد بالتحنيط حتى يمكن للنفس أن تتعرف عليه وتصحبه إلى العالم الأخروي.

خامسًا: أنها تمتلك أرقى نظام تربوي وتعليمي يتدرج بالطفل من التعليم عن طريق اللعب، والرياضيات عن طريق التجسيم والنماذج. وحينما يصير الطفل شابا فإنها قد أبدعت له نظاما تربويًا بقواعد محددة تبعده عن الإنخراط في حياة اللذة، وتقربه من حياة العبادة والتقرب إلى الألهة بالتقاليد المرعية في ممارسة العبادات والاحتفال بالأعياد، ذلك الاحتفال المعتدل بالاستماع إلى الترانيم والموسيقى المناسبة لكل احتفالية.

سادسًا: إن مصر في رؤية أفلاطون باختصار كانت نموذجا يحتذى في رقيها الحضاري ونظامها التعليمي وتقاليدها السياسية ومراسيمها الدينية، لقد كانت مصدرا للإلهام ومثارا للدهشة في كل ما أنتجته وفي كل ما أبدعه مفكروها وما اكتشفه علماؤها.

(١) أفلاطون، فيدون (٨٠ج)، الترجمة العربية لعزت قرني، سبق الإشارة إليها، ص١٣٣.